منعطف إلى طريق آخر ...

قصة بقلم عبد العزيز مشري

تهيأ لكل احتمال ، وهو يعرج على بيتها . ودون ادنى تردد قرع الجرس ، ووقف ينتظر ، ملقيا بنظرة عابرة الى باب الشقة الاخرى في الطابق ، ثم رجع ينظر الى يده المعتمدة على الجدار نظرة غامضة .

انفتح الباب عن امرأة في منتصف العمر ، استقبلته بابتسامة متحفظة ، مندهشة ، وبكلمة ترحيب ينطوي جرسها على عتب . لم يتكلم ، وقف هادئا ، يحدق اليها بعينين رخوتين لم يختف منهما ذلك الغموض .. بينما اتخذت هي وضع صبية مراهقة ، مستندة بكتفها الى مصراع الباب . وبوعي يفتقر الى الحماسة التي كانت متوقعة من رجل قادته حمى الشهوة الى هذا الباب ، لاحظ انفتاح ردائها المنزلي عن ثوب النوم الحريري الاحمر الذي يشف عما تحته شفوفا ضبابيا ، لضعف في النور . وكان خضاب شعرها الاسود كالحا يحتاج الى تجديد ، ووجهها عاريا عن تلك الزينة المبالغ فيها فظهر غريبا عليه ، خاليا من اية لمحة محببة .

غنجت بصوت يهدل بلين يقارب الميوعة :

ـ الا تستحق تحية ، ولا أية كلمة بعد هذا الغياب ؟

يا لهذه الدعاوة الانثوية ! لماذا لم تدرك حتى الآن انه يكره هذا الاسلوب في التغطية واللف حول الاشياء ؟ انه يكره هذا الاسلوب ويسبب له نفورا وحنقا . قال لها ، لمجرد الكلام :

ـ انها الظروف كما تعلمين .

وفي اللحظة نفسها ادرك انه يدخل اليها ويشاركه في العملية ، وخطر له ان هذه العملية من ناحيته خسيسة ، وينبغي ان يخجل من نفسه . فابتسم مداريا . قالت وهي تغمز بعينها :

ـ نعم ، الظروف . دائما هي الظروف .

وانتظرت ان يتكلم . ثم قالت :

ـ العزوبة هي مطلبك ، وانت الآن تنعم بها ولا شك ، بعدما سافرت زوجتك .

ـ ليس تماما .

وقد فكر : كم تستطيع المرأة ان تكون خبيثة ومراوغة ! كانها تقول : غاب القط فالعب يا فار . الا اذا كان هدفها معرفة مكانتها هي من هذا المطلب الذي تلمح اليه . واذ يئست من كلمة اخرى اضافية، شرعت تستجره :

ـ لماذا « ليس تماما » ؟ اليست هذه فرصتك ؟ ام ان الوحدة اثقلت عليك بعد رحيلها ؟ انت من النوع الذي لا يستغني عن المرأة . لا فائدة من الخداع ، انا لا اصدق ان ما من امرأة اخرى هناك . أانا مخطئة ؟

ابتسم قائلا :

ـ انت تعرفين الجواب .

وتعجب من قدرتها على المخاتلة بهذه الصورة ، بعد كل ما كان ، ليتها تعلم أن هذا لا يشجعه ولا يثير فيه الاندفاع الذي ترجوه . قالت مشاكسة :

ـ انى لي هذه المعرفة ؟

واراد انهاء هذه الطريقة السخيفة في المناورة ، فقال مباشرة ، وبخشونة تقريبا :

ـ انني اجلس في البيت وحيدا، فاتحا بابه كل الوقت ،بانتظارك. وبعد هذه الايام من الانتظار جئت لاتأكد من انك لم تسافري انت الاخرى .

ابرقت عيناها بفرحة متهافتة ، وارتبك جسدها الذي يضج بالحرارة والصفوان رغم اقترابه من خريف الكهولة ، حتى ظنها ستلقي بنفسها فوق صدره . غير انها قالت :

ـ سيلاحظ الجيران دخولي وخروجي . هم يعرفون انك وحدك في البيت .

فنظر اليها بدهشة رجل ساذج . كم مرة جاءت اليه في غياب زوجه ، حين لم تكن في نفسه هذه النية التي تضج بها حناياه الآن وتسبب له رعافا داخليا ! وحين اوشك ان يقول لها ذلك اوقفته فكرة: اذا كانت تحاول التملص فلن اجادلها ، يجب ان تكون راغبة . ثم ادركه شيء يشبه البرد ، داخل معدته .. قد يكون بدايات قرف . قال بهدوء يكذبه صوته المتخاذل :

ـ حسنا . انت محقة .

واستدار هابطا الدرج الى الشارع ، فاحس بدفء نقي هفت به اشعة الشمس اللطيفة ، وجعل يضحك وهو لا يعرف بالضبط ان كانت هذه النتيجة تستحق رد فعل آخر غير الضحك . واتجه الى بيته ، في الجادة الاخرى ، مثلة خطوة لم يع أنه مشاها واجتاز بها ذلك المنعطف القوسي الذي تبدأ به الجادتان . ولانه لم يترك مكتبه الا « لشرب القهوة » ، حجتها الدائمة للالتقاء به ايام كانت الزوجة لا تحس بمياه السيل وهي تحت التربة تحت بيتها ، فانه دخل المطبخ مباشرة ، وشرع يصنع القهوة ، لشخص واحد بالطبع ، بذلك الشعور نفسه من البرودة الذهنية الذي ينولد عن خيبة الفة ، الفة واعتيادية كصديق ثقيل الظل ، بليد الاحساس ، يفرض حضوره عليك . ومن البداهة ان ذلك لم يخفف وطء الحيرة والتساؤل . أهي تعني ما قالته حقا ؟ ام هي مماطلة نسائية مما يفترضه الدلال عادة ؟ أكان يجب ان يقوم بعمل ايجابي حاسم ؟ اذ ان المفروض دائما ان يقوم الرجل بدور المغتصب حتى في مثل هذه الحالة ، حتى في حالة كونه الفريسة وكونها الصياد ، فهذه « عادة » وانت لا بد لك من الخضوع لها . اذن ... ؟

سبعة ايام ! نعم ، سبعة ايام مضت على سفر الزوجة ! وكان يعول على هذه الايام مثلما يعول على النقاهة جريح خرج من المستشفى بعد مدة طويلة من العيش وسط ذلك الخضم الابيض الواسع من الطهارة الجبرية والنقاء المخنوق ، من الانين والحشرجة والصرخات والاحتضار ، ونصاعة البياض صبر ابله ، مسالم وحبي يتودد الى قهرك وهو يصافحك من فوق الجدران والابواب والنوافذ والاردية والاغطية والسرر . كل شيء يحاكي الثلج ، في صلابته الهشة وفي جديته الرقيقة الباردة ، تفوح منه روائح الادوية والمطهرات وتذكرك بشروط الحياة القاسية ، مثلما ترسم لك ايضا الطريق الى المقبرة باستمرار .

وعندما حمل فنجان القهوة الى المائدة وجلس تجاهه مستمتعا بنكهة رائحته ، تنبه الى أن وضعه لا يزال غير طبيعي ، ولا يزال مضحكا . ما هذه السخرة ؟ انه ما برح يحمل قناع الممثل حتى في خواطره وحديثه الى نفسه ، رغم انه اراد لايام الاجازة هذه ـ مدة غياب الزوجة التي قد تطول شهرا ـ اراد لها ان تعفيه من هذا الدور، ان تطهره حقا وتتيح له العودة الى السوية والارادة . ها هو ، حتى من خلال تفكيره ، يلجأ الى التورية والالفاظ العامة الفضفاضة التي يمكن ان تعني هذا الشيء كما تعني ذاك ، و ... نعم ، انني غارق في

الزيف لا أزال . اي مستشفى واي نقاهة ؟

حاول الانطلاق من هذا الاسار . الا انه الفى نفسه يعود الى التفكير بالمستشفى من جديد ، ولكن بصورة واقعية ، وان اختارها صورة كلاسيكية لاعتقاده بأن الاصالة تقتضي هذا . حسنا ...

لقد كان زواجا فاشلا . اهناك تعبير آخر ؟

وبعد سنة او سنتين شرع اليأس القديم يعود اليه .. اليأس من الالفة والتكيف . لقد بنى على زواجه بهذه السيدة بناء وهميا . لم يدرك هذا الا بعد فوات الاوان ، بعد ان رأى البناء وهما . ولم تحاول الزوجة وهي هذه الحقيقة ، كما لم تحاول الكشف عن دوافع هذا الرجل واساس هذه الدوافع اليها ثم الى الزواج بها . بدلا من بذل مجهود ما في هذا الاتجاه هيأت له كل الاسباب الصالحة ليكفر بها وبالزواج .. بل أكثر .. بالحب اطلاقا . وهو ـ كما لاح جليا بعد سنة او سنتين ـ حين انجذب اليها بقوة واحبها ، ولاقى منها قبولا مماثلا ، لم يدرك عندئذ انه قبول غريزي ، لا دافع له سوى هذا الاحساس بالمحافظة على البقاء بكنف رجل يريدها . غريزة المرأة الجاهلية يمكن القول ، والمرأة على كل حال يجب ان تتزوج ويكون لها بيت زوجي واطفال . ولهذا فهي لم تمنح نفسها لحبه كما اراد ووفق فهمه الخاص للحب والمنح . وعندما بدأ يضيق بها ويعاني الندم ، قدر ما يعاني الضجر ، احس بأنها تبتعد عنه حتى في اللحظات الصميمية ، حيث يكون العمر اكثر نداوة وتأكدا وحماسة ، وحيث يكون التلاصق سلاما خالصا .

رجع الى تعاسته القديمة . ولانه بطبعه ذو حساسية سوداوية ، كما ينبغي الاعتراف ، فان هذه التعاسة قد رجعت قاتلة ، واتخذت افكاره اسلوبا فاجعا في مسارها ، حتى ان هلوسة خفية نشأت تنز في داخله يأسا كاملا ، مستمدا ، اغلب الظن ، ليس من فشله هذا ، وانما من فشل عام في تقبل الاشياء والايمان بصحتها ، جاء هذا الفشل تكريسا له ، بعد ان ظن في الحب والجسد الحقيقة الوحيدة التي يمكن الركون اليها لتمنحه خلاصه .

لقد تبادر اليه احيانا توق سائب الى تجربة اخرى ، الا انه لم يتمكن من نفسه وظل طفيليا . صحيح ان عذابه شيء غير مبرر وسخيف بقدر ما هو عذاب وحشي . هذا صحيح . ولكنه تحمله في سبيل ان يبدع لنفسه قيمة مثالية واحدة على الاقل يتعلق بها وتخفف عنه حدة هجمات اليأس العنيفة ، ولتعزيه ايضا ... أن يكون شهيدا ، بمعنى من المعاني . قد يكون هذا مضحكا . ولكن هذا ما فعله ، فكان لا بد من ان يكون الاخلاص للزوجة والاطفال شيمة تنبض في حياته كالقلب ، مثلما كان الصليب في حياة المسيح الخالدة .

بيد أن شيئا طارئا تسلل الى هذه القناعة ، وجعل يقاوم خطته بدأب وبسرية . فقد فوجيء بهذه المرأة ـ صديقة زوجته الصدوق ـ تحمل اليه امكانية عطاء وامكانية فهم : أن تعطيه ما يريد من المرأة ، وان تفهمه فهما يساعد في معالجة الحرارة علاجا ـ على الاقل ـ فيه شفاء نسبي ومؤقت . وبالرغم من معرفته اياها خلال اشهر عديدة من قبل ، بدت له كما لو انه يراها لاول مرة . كانت لحظة التحول هذه في نهاية احدى زياراتها الليلية ، تحول لا يدري ان كانت له ـ من طرفها ـ مقدمات لم يتنبه اليها ، فهو لم يكد يلاحظ هذه المرأة ملاحظة خاصة وعلى نحو خاص . لم تكن اكثر من صديقة من صديقات الزوجة ، بل الاحرى انه وقف منها موقفا منكرا ، لما في سلوكها من تكلف ظاهر ومبالغ فيه ، يثير الرثاء والسخط والسخرية .

أما في تلك اللحظة .. فقد بدأ احساسه بها يتغير وهو يرى عينيها تمعنان فيه النظر ، في عينيه ، وتطيلان الامعان ، ورأى في هذه النظرة ، في عينيها ، بعدا آخر .. مد طريق حاول عبثا مرافقة زوجته عليه ... طريق من التبادل العميق للعزاء ، للقوة ، وحتى للدموع ان كان ثمة حاجة اليها ، التبادل الخالص الذي لا يستند الى تعاقد رسمي يحضره شهود ، ويوثق بشروط وتعهدات تنتهي الى نوع من المسؤولية عظيم الصبء وكريه الطعم . باختصار ، كانت لحظة يمكن وصفها بولادة جديدة .

ولم تتوقف تلك اللحظة عند حدوديتها كوحدة زمنية ، فقد امتدت واستهلكت كل زيارة من زياراتها اليومية الدائبة ، وعرشت في سماء بيته ظلالا وانوارا تهمي بها عيناها وهما تنشدان انشودة الحب حينا ، او يضطرب فيهما ايقاع ملحمي يصخب به جسدها المكتنز حينا آخر. فهل يدهش بعد ؟ ايدهش وهو يحس بانها تسيطر عليه ، يوما بعد يوم ، يفكر بها ، ويشتهيها اشتهاء يؤرقه ولا يفارقه حتى انه يختلط بالواجب الزوجي ! لا . لم يعد يدهش . ولكنه سرعان ما كان يحس لا بالحماقة فحسب ولكن بالقرف ايضا .. بالقرف من وضع يحقر كل شيء .. بدءا من نفسه الى المرأة الزوجة الى المرأة العشيقة الى كل هذه السخافات التي تجري في العالم .

والسؤال يلح عليه : أيتخلى عن صليب الاخلاص ويكتفي بالاخلاص لنفسه وحدها ؟ وكذلك فان المرأة لم تكف عن الالحاح ، وان ظل الحاحا غير صريح الصراحة المكشوفة .

اخافه الاحتمال وراح يدافعه بعيدا ، وهي صابرة .

ولكنه أستسلم في النهاية . اما كيف ، فمثلما تبدأ كل الاشياء الخطيرة ، مثلما بدأ ينجذب اليها مثلا . فقد وجد نفسه ، ذات ليلة ، مسوقا الى الاستسلام للتفكير ، لا بصورة جادة ، بل بدافع من نوبة ضجر ويأس حادة شنت عليه احدى هجماتها المعتادة وافترست النوم منه ، فقام من فراشه الى السيكارة ، جلس يدخنها على اريكة مريحة وسط عتمة البيت . تأمل حياته المفعمة باليأس والتعاسة ، وتعاسته تضغط عليه مثل كابوس يوشك على خنقه ، وانتهى الى ان يرى الاشياء غير محتملة ، واغلقت عليه جميع السبل . وهنا قفزت المرأة من قلب الاشياء المعتمة ووقفت امامه ، بعينيها الندينين وشوقها المجند بكل انتمنيات : شبيك لبيك ـ نعم ، عفريت الخرافات ـ هيا . كف عن التردد .

ـ ما الذي تستطيعينه من اجلي ايتها المرأة ؟

ـ جربني . اليس من الجائز ان اقدم لك ما عجزت عنه تلك النائمة مطمئنة تاركة اياك وحيدا تعاني وحشية تعاستك ؟ اليس جائزا ان تجد عندي ما تفتقده فيها ؟

ـ اتعرفين ما الذي افتقده فيها ؟

ـ اعرف . انا اعرفك واعرفها كما اعرف نفسي . أكان لي اي شاغل طوال هذه الشهور الا مراقبتك ومعرفتك .

ـ ان مظهرك جميعا يدل على سخف وفراغ كاملين .

ـ من ادراك باحوال الناس حتى تحكم من الظاهر ؟ هل انت متأكد من ان مظهري ليس اكثر من نتيجة طبيعية لما اعانيه من السأم وفقدان القيمة المعوضة عن فراغ الاشياء ؟

ـ لا . انا عاجز عن التأكد من اي شيء . وفقدت الايمان بكل شيء .

ـ حسنا ، دعنا نترافق . انا مثلك صدقني . انت قلت يوما انك انتهيت الى الايمان بالحب والجسد كحقيقة اخيرة تصلح للعزاء. اليك حبي اذن .. واليك هذا الجسد الذي لا يمكنك الاستهانة به.. انظر اليه .

وشرعت تتعرى له بسرعة أذهلته ، وقعد ينظر اليها وهي واقفة امامه مبهور الانفاس . واجتاحته دعوتها مثل الحمى : هيا اذن ، جربني . حتى أن جسمه توهج توهجا كثيفا بحرارة آتونية ، فهب عن اريكته وذهب الى النافذة يتسنم منها نسمات الفجر الباردة لتنعش روحه المحاصرة . احس بسقوط ارغبه ، فأغمض عينيه ، وغرق في بحران من الشعور بالشقاء ، وعبثا حاول التفكير بمنقذ آخر .. فكل شيء لا قيمة له ولا يتمتع بالصحة .. العقيدة ، والسياسة،والانسانية، والحب ... خداع صنعه الناس ليعيشوا به ، ليعطوا للحياة مبررات وغايات عندما ادركوا انها تفتقر الى المبرر والغاية . حسنا ،والجنس؟

صار المبرر دسما للتحامل الآن . التحامل على الزوجة النائمة. وجد نفسه يفكر بتلقائية مباشرة ، مثل نتيجة حتمية لمعادلة منطقية : انه لا يعرف على وجه الدقة مدى اخلاص هذه الزوجة له . لا اعرف ان كانت افكار مماثلة لافكاري ، ودوافع مماثلة واشتياقات مماثلة قد هدهدها او قادتها الى طريق مماثلة ايضا . ولم لا ؟ اذا تماثلت حالتان في الطبيعة فلا بد من سيرهما عندئذ باتجاه واحد ، اعني الى نهاية مماثلة . انه مخطىء في هذه النظرة ؟ فليحاول ... ولكن لا ... ما الفائدة من محاولة الكشف ؟ انه منفصل عنها ، فماذا يهمه في النهاية ؟ ومع ذلك ظلت افكاره تطوف هذا الطواف المريب . كم هي وضيعة اكتشافات الدنيا كلها ـ بما فيها احوال الفضاء الخارجي ـ الى جانب اكتشاف واحد .. اكتشاف احدهم زيف كل شيء ، عندما يتحقق بطريقة ما ، انه ، مثلا ، وزوجته يعانقان في الوقت نفسه امراة ورجلا آخرين حينما يكونان معتنقين على فراش واحد ،متلاحمين، ويهمس كل منهما للآخر باخلص كلمات الحب واعذبها ، ويتبادلان قبلات ذات صميم وصخب ، الى آخر العملية !

هذه المرأة التي تلاحقني وتدأب على ملاحقتي بهذا الالحاح ، اليست هي زوجة نحيا مع زوجها ، نعنى به ويعنى بها ، وتفار عليه ـ كما اعرف جيدا ـ وتنام معه بصورة مقبولة ؟ لماذا لا تكون زوجتي ، هي الاخرى ، كذلك ؟ كيف اعرف ؟ انها البداهة ، اليست البداهة كافية ؟

وارتد عن النافذة دون ان يتلقى اية مساعدة من برد الفجر . وكان طيف المرأة ينتظر ملء البيت ، وقد بدا الآن فارغ الصبر : هيا اذن ، حدد موقفك . فاجابها فورا : حسنا ، الى الغد . غدا لن تخرجي من هنا الا وبيننا موعد لقاء . لقاء كامل .

كان موفقا باتا ، بدليل انه نام وهو مستسلم له ، لطيفها تماما .

غير ان المرأة انقطعت عن زياراتها . لم يجرؤ على الاستفسار من الزوجة التي لم تكن غافلة عن « هذه السفالة » حسب تعبيرها،وكانت بعد ايام من المتاعب ، وتجاه دفاعه المتقن بمهارة فائقة ، قد اقتنعت بان المسألة وحيدة الطرف ، من جانب المرأة الصديقة وحدها . اما هو .. فصادق ، انا اعرفه ، ان مزاجه ليس من النوع الذي يسوغ مثل هذه المرأة المبهرجة . ولحسن حظه ـ ربما ـ كانت قناعتها على هذه الصورة قريبة من الكمال . وهكذا عزمت اخيرا على السفر ، بعد تردد طويل ، وتركت البيت له متحررا من رقابتها ، فترك الباب مفتوحا لصديقتها .

ـ سيلاحظ الجيران دخولي وخروجي . هم يعرفون انك وحدك في البيت .

اتراها قد عنت هذا ؟ اذريعة للتملص من وعد اغدقته ثم ندمت ، ام هو اعتذار حقا ؟ النتيجة في الحالتين : صفر .

كان فنجان القهوة امامه قد انتصف وبرد .

لا بأس ، دعك تبرد انت ايضا .

ولكن .. استقبالها لي لم يظهر فيه اي تراجع ، اليس كذلك ؟ وتلك النظرة في عينيها ...

فليظل هذا الباب مفتوحا .

وامتدت يده الى فنجان القهوة ، وقبل وصولها اليه سمع وقع حذاء نسائي يجتاز الباب ، ورآها تبتسم وهي تتقدم ، دون ان تغلق الباب خلفها . احس برخاوة تنتاب جسمه كله ، وساوره شعور بان اعضاءه تتحلل وتتفسخ ، فقام بصعوبة وابتسم لها ، دون حركة اضافية اوكلمة . اما هي فهنفت بفنجها المعهود :

ـ مررت لاشرب القهوة معك ، وها انت تشربها وحدك .

واختارت مكانا للوقوف في الجهة الاخرى من المائدة .

ـ اجلسي ، سأعد لك فنجانا .

ـ لا ، ليس لدي وقت ، لا استطيع المكوث .

واراد ان يسألها لماذا جاءت اذن ، بعد ان اعتذرت قبل ربع ساعة . قال لها :

ـ هيا اجلسي ، لن يستغرق اعداده اكثر من دقيقة .

ـ لا ، ارجوك . لا بأس . ليس له لزوم الآن .

وكما لو ان احدا دفعه بكل ثقله سقط فوق الكرسي ، واحس بالاضافة ان البلاط تحت قدميه تحول الى رمال متحركة . كل شيء مزعزع ، وغير ثابت . انها مع ذلك غير بعيدة عنه ، انها حركة يسيرة هذه التي يتبقى القيام بها ليمسك بيدها . بدلا منها بادرته بسلادة لزجة هي حتى هذه اللحظة ليست فتورا وليست أي شيء يدل على انقراض عنفوان الرغبة التي احيتها هذه المرأة . سألها :

ـ متى اذن ؟

فتمايلت ، وعيناها تبرقان كسماء شتوية تتذلل لها تربة الارض ، ثم هدلت :

ـ اراك متعجلا الآن . ما الذي حدث لك اخيرا ؟

نعم ، يا سيدتي . انه سؤال جدير بأن يطرح . لماذا ؟ ما الذي حدث لي ؟ ان الاجابة تقتضي وقتا طويلا من البحث والتفسير.ولكن، احقا تنتظرين مني الجواب ؟ قال متململا :

ـ انت على كل حال لا تجهلين اهم سبب لتباطئي ذاك . لقد لاحظت انت بنفسك شكها ورقابتها الصارمة . هذه هي الفرصة .

ـ نعم . ولكن ، ماذا يقول الناس ؟

وتقيأ بعنف :

ـ اي ناس يا سيدة ؟

ـ يا الهي ! ما الداعي الى هذا الصراخ ؟

ثم قالت :

ـ الجيران ، جيرانكم ، يعرفون كما قلت لك . وانا اعرف انهم يراقبون . الا تدرك هذا ؟

واذ لاحظت انطواءه ورجفة شفتيه ، قالت :

ـ الناس يخلقون من حبة القمح الجافة مزرعة كاملة . وهم لا يرحمون .

وكان لا بد من بلوغ ازدرائه لها نهايته القصوى ان لم يضع حدا لنموه . غمغم :

ـ طز !

فالت بلهجة ذليلة :

ـ انت لا يهمك ، هذا صحيح . انت لا تبالي بالناس . لا تبالي حتى بمن يهتمون بك . اما انا .. اما نحن .. فاننا لا نستطيع اغفال امرهم فضلا عن اسقاطه .

ـ حسنا . اسقطي انت اذن .

ـ ما الذي تعنيه ؟

انها تستنكر . ايخجلها حقا ما فهمته هي من كلمة السقوط . انه لم يقصد الا المعنى نفسه الذي قالته عن الناس . سقوط ثمرة من غصن ، او شرفة عن جدار ، او فارس عن جواده . ولكنه لم يعن

منشورات دار الاداب

تطلب في

الدار البيضاء (المغرب)

من

مكتبة دار العلم

للنشر والتوزيع

٤٠ شارع الملكي ـ الاحباس

تلفون ٦٢٣٠٩

بشرح او تفسير يقدمه لها . فاجاه هدوء غرابي. حلقة مفرغة. اهكذا نستمر ؟ اهكذا استمر ؟ لماذا لا نرجع زواحف واسماكا ؟ اكان ضروريا ان نرقى الى الدرجة التي نفقد فوقها كل توازن ، ثم لا يجد الواحد منا سندا ؟ ولماذا ؟ آه ! نعم ، الناس ! الناس !

ـ اسمعي . لن احاول اقناعك ، فقد تكون المحاولة من هذا القبيل نوعا من الغرور ، قد اكون انا نفسي غير مقتنع ، غير متأكد . غير ان الامر يبدو لي هكذا ... ان لم نتحرر من الناس ، كيف يمكننا التحرر من النعاسة واليأس ؟ منذ بضعة شهور وانت تغريني بهذا المشروع.. ان نتعاون معا على التحرر من النعاسة واليأس .. والآن ؟ ما الذي اراه واسمعه ؟ ما هو جوابك وانا امد يدي اليك ؟ الناس ! اليس هو جوابك ؟ واذن ؟ انت لا تملكين مساعدتي .

ـ يبدو لي انك تبالغ في تصوير كل شيء . يجب ان تتأكد من انني .. معجبة بك ...

واستشف مرارة في لهجتها وحنقا ، تؤيدها حركة عفوية من يديها الاثنتين وهما تضربان المائدة بايقاع تضبط به كل عبارة، متحاشية النظر الى عينيه الغاضبتين ...

ـ ... وارغب في صداقتك .. ارغب في الاجتماع بك دائما ، لنتحدث بالفة وحرية .

وتوقفت حركة يديها ، وشخصت اليه بنظرة محترقة . ثم دمرت كل ما سبق من كلمات الاغنية اذ قالت :

ـ ثق اننا لن نعدم فرصة مناسبة .

فهتف :

ـ يا الهي !

ونهض يريد ان يدفعها الى الخارج .. وفي هذه الاثناء رأى عينيها وهما فارغتان من كل شيء تقريبا .. انهما مجرد اداة بصرية . تجمدت حركته ، وتوقف ينظر اليها .. عندئذ ، مثلما ظهرت له في البداية فجاة ، اختفت . اختفت المرأة كلها ، مضت ، وخلفت مكانها هيكلا انسانيا خاويا ، ينتصب تجاهه وهو يبتسم ابتسامة بلهاء ، تشبه ابتسامة في صورة تذكارية قديمة ، رديئة التصوير . أكان ذلك كله حلما من احلامه ، ام تخيلا من تخيلاته الكثيرة التي استهلكت عمره؟ فرصة مناسبة !

قال :

ـ تقصدين .. عندما يفنى جميع الناس ، ونحن فيهم طبعا .

ـ لا .. طبعا ، لا . انما .. اعني .. فرصة اخرى حقا .

تلفظت بذلك وهي تغادره . فظل واقفا ينظر الى الباب المفتوح في حياد كامل ، تولد من القهر والسخط المتجاوزين كل حد .

نعم ! ماتت الكلمات ، وظلت الثرثرة . ثرثرة كانت غزيرة وطويلة المدى ، نبضت بملامح وسمات كلمات حقيقية ، ورائعة مثل رايات الانتصار وشعارات العقائد و ... كلمات لها مخايل الدم والعصب والشعور ، حتى اوحت بأنها حركات القلب البشري نفسه . ولكنها.. ها هي .. في النهاية .. لم تكن سوى ثرثرة .

ضحكة اخرى ، من السلسلة . ليست لك ، وانما هي عليك . قلت لنفسي ، منذ البداية : ما الفائدة ؟

وحمل فنجان القهوة الى المطبخ . لم يكن فيه سوى الحثالة السميكة ، بعد ان شرباه مناصفة . والقى به في حوض المجلى فاذا به ينكسر الى قسمين . تمتم : الى جهنم !

وبارح البيت يريد العودة الى مكتبه . كان بيتها على طريقه الذي يسلكه الى المكتب . ها هو المنعطف يدور به الى الجادة الاخرى، ويمشي على الرصيف ، ويجتاز بيتها دون ان ينتبه اليه ، فهو غارق في احساسه الفاجع ، ولكنه هادىء ، وبعيد عنها وعن بيتها ، بل ربما انه لم يعرفها ابدا ، ربما هي لم توجد ، ولم يوجد لها بيت هنا او هناك ، في اي مكان محدد . من يجزم ؟

دمشق

عبد العزيز هلال

احلام البيت المغلق

ديوان الشعر المنتظر
للشاعرة العربية الكبيرة

فدوى طوقان

المجموعة الشعرية الاخيرة التي وضعتها شاعرة النكبة فدوى طوقان ، وهي تضم طائفة من القصائد الجديدة المستوحاة من مأساة الشاعرة ومأساة كل عربي مزقته كارثة فلسطين .

صوت ندي بالاسى والدمع يجيئنا من الضفة الغربية ، يحدثنا عن آلامنا ونكبتنا اعمق الحديث وأشده حزنا .

اخر ديوان لصاحبة « وحدي مع الايام » و « وجدتها » و « أعطنا حبا » .

الثمن ٢٠٠ ق. ل

صدر حديثا